مقتبسات من ابن إياس

المقتبسات المختارة هنا منقولة بنصها للقارىء ، من الطبعة الأخيرة من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، مع تشريح الفقرات فى كل مقتبس منها بكثير من علامات الفصل والوصل والترقيم .

وأول هذه المقتبسات فاتحة أخبار سنة ٩٠٨ هـ (١٥٠٢ م) ، وهى السنة الثالثة من عهد السلطان قانصوه الغورى ، حين تم أمر هذا السلطان فى السلطنة ، وثبتت قواعد دولته ، فأخذ فى إعلان اسماء الموظفين لحكومته . أما منبع اختيار هذه الصفحات ، فهو احتواؤها على تصوير استاتيكى شامل لجميع كبار الموظفين فى السلطنة المملوكية الجديدة ، قبل أن يتحركوا فى دوائر وظائفهم المختلفة ، وهو تصوير يقف بالقارىء ويستوقفه ، ليرى منه لنفسه أن مصر المملوكية لم تكن للمصريين ، من قريب أو بعيد ، بل كانت لفئات من المماليك الأجانب المسيطرين باسمائهم واسماء زوجاتهم ، وزطاناتهم التركية وغير التركية ، على جميع شئون البلاد الإدارية والاقتصادية والاجتماعية .

ويتلو هذا التصوير جملة من أخبار السلطنة المملوكية ، صغيرها وكبيرها ، وبعضها سياسى ، وبعضها اقتصادى أو غيره ، حسبما اتفق من الترتيب الزمنى المطلق ، سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، ويوماً بعد يوم ، وهو ماتجرى عليه كتب الحوليات التاريخية فى جميع اللغات الشرقية والغربية فى العصور الوسطى .

والمقتبس الثانى أخبار جاءت من مكة إلى القاهرة مع مبشر الحاج ، أواخر سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) ، وهى تصف لأول مرة ، وفى قليل من التفصيل ، جميع أعمال البرتغاليين فى مياه المحيط الهندى والمداخل الجنوبية للبحر الأحمر ، منذ مجىء السفن البرتغالية من غرب أوربا إلى تلك الجهات ، عن طريق رأس الرجاء الصالح ، أى منذ عشر سنين قبل وصول هذه الأخبار الموجزة إلى القاهرة . ويبدو من هذه الأخبار التى أوردها ابن إياس ، عرضاً ضمن أخبار مكة والمحمل المصرى السنوى ، أن المعلومات الجغرافية المملوكية بصدد البرتغاليين وأهدافهم واتجاهاتهم كانت حتى وقتذاك ضئيلة قليلة جاهلة ،

وأن إفاقة السلطنة المملوكية للخطر البرتغالى على شراييتها التجارية الواصلة وقتذاك إلى الهند جاءت متأخرة ، وكان تأخيرها هذا سبباً من عديد الأسباب التى أنزلت بأسطول مملوكى كبير هزيمة بحرية مشهورة ، على أيدى البرتغاليين فى المياه الهندية ، شمالى بومباى الحالية ، كما أنزلت بجيوش مملوكية بقيادة السلطان قانصوه الغورى نفسه هزيمة أكثر شهرة ، على أيدى العثمانيين ، وهى هزيمة مرج دابق شمالى حلب الشام .

والمقتبس الثالث بيان وصفى لهزيمة مرج دابق ، وهى الهزيمة التى ختمت بخاتم الانهيار على السلطنة المملوكية فى مصر ، وافتتحت بها السلطنة العثمانية سلسلة انتصاراتها الزاحفة عبر الشام إلى مدينة القاهرة ، حيث أعلن السلطان سليم العثمانى نهائياً أن مصر باتت ولاية تابعة للعثمانيين . وفى مطلع هذا المقتبس تصوير للجيش المملوكى ، وعلى رأسه السلطان قانصوه الغورى يرتب الصفوف استعداداً للحرب والقتال ، وكأنه وحاشيته وقادته فى موكب العودة من انتصار مملوكى كبير، أو احتفال بمولد من موالد الأولياء الصالحين، أو بيوم الخروج لصلاة أحد العيدين . غير أنه لم تكن بضع ساعات حتى صار ذلك الموكب الاستعراضى الحافل مركزاً دارت حوله معركة حامية دامية ، بدأت بمأساة سقوط السلطان قانصوه الغورى ميتاً بالفالج فى الميدان ، وانتهت بمأساة انهزام الجيش المملوكى ورجوعه القهقرى مفلولاً مكسوراً إلى حلب ودمشق ، ثم إلى القاهرة .

والمقتبس الرابع ترجمة طويلة للسلطان قانصوه الغورى ، بعد وفاته فى مرج دابق ، وهى ترجمة تحليلية ناقدة لأعمال هذا السلطان ، وصفاته الشخصية وسياسته . ويبدو واضحا من نغمة هذه المقتبس أن ابن إياس لم يكن من المعجبين بالسلطان قانصوه الغورى ، وأن محاسن هذا الرجل لم تكن فى نظره شيئا بالقياس إلى مساوئه . غير أن ابن إياس لم يكن منصفاً فى هذا التقدير ، لأنه أغفل فيه أن هذا السلطان الطاعن فى السن اعتلى دست السلطنة فى دولة نخرت فيها عوامل الاحتضار والزوال منذ سنين ، وربما كانت الرغبة فى مقاومة هذه العوامل هى التى أدت بهذا الرجل الطيب القلب إلى اتخاذ ما اتخذ من إجراءات إنقاذية مالية تعسفية كثيرة .

والمقتبس الخامس قائمة باسماء بعض الأمراء المماليك والقضاة ، وكبار الموظفين والمهندسين والتجار، وأساتذة المهن والحرف والصناعات ،من المصريين وغير المصريين ، ممن قرر السلطان سليم الأول العثمانى إخراجهم من القاهرة ونفيهم إلى إسطنبول ، لأسباب متعددة ، وربما كانت الوطنية المصرية أحد هذه الأسباب . وتبلغ هذه المجموعة نحو مائة من الرجال ، ولكنها تبلغ أكثر من ذلك ، سواء من ناحية الكم العددى ، أو الكيف الفنى ، بدليل ما أورده ابن إياس فى كتابه ، قبل هذه القائمة وبعدها ، من اسماء خرج أصحابها منفيين من القاهرة إلى إسطنبول . فضلا عن أن هذه الاسماء ما تقدم منها وما تأخر ، اشتملت فى الواقع على مجموعة المهارات الإدارية والصناعية التى اقتلعها العثمانيون من مصر ، ليفيدوا منها فى بناء عمائرهم التى تزدان بها إسطنبول الحالية . ولم تكن هذه الخسارة أول الخسائر المصرية أو آخرها ، بسبب الاستيلاء العثمانى على مصر ، وهى تدل فيما تدل على أن مصر فقدت وقتذاك السيطرة على مستقبلها القريب والبعيد ، وذلك لمدة أربعة قرون مظلمة ، وتناول منها كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور مايزيد عن خمس سنوات قصيرة ، أى حتى سنة ٩٢٨هـ (١٥٢٢م)، وهى السنة التى التى توفى فيها محمد أحمد بن إياس .

المقتبس الأول

فاتحة أخبار السنة الثالثة

من عهد السلطان قانصوه الغورى

ثم دخلت سنة ثمان وتسعمائة ، فيها فى المحرم كان خليفة الوقت يومئذ الإمام المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز ، والسلطان يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى .

وأما القضاة الأربعة فالقاضى برهان الدين إبراهيم بن أبى شريف المقدسى الشافعى ، والقاضى سرى الدين عبد البر بن الشحنة الحلبي الحنفى ، والقاضى البرهان إبراهيم الدمبرى الملكى ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الشيشينى الحنبلى .

فلما دخلت هذه السنة ، وتم أمر السلطان فى السلطنة ، وثبتت قواعد دولته ، قرر الأمراء المقدمين أربعة وعشرين أميراً مقدم ألف ، منهم أرباب الوظائف ، وهم الأتابكى قيت الرجبي أمير كبير ، وقرقماس من ولى الدين أمير سلاح ، وأصطدر من ولى الدين أمير مجلس ، وقانى باى قرا من ولى الدين أمير آخور كبير ، وطرا باى الشريفى نوبة النوب ، وأزدمر من على باى دوادار كبير ، وخاير بك من ملباى حاجب الحجاب ، وهو أخو قانصوه البرجى نائب الشام ، فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء المقدمون الذين بغير وظائف ، وهم خشكلدى البيسقى الظاهرى خشقدم ، وقانصوه بن سلطان جركس المعروف بابن اللوقا ، والأمير سودون العجمى ، وماماى المحمدى المعروف بجوشن ، وأنصباى من مصطفى ، وتمر الحسنى ، وطقطباى العلاى نائب القلعة ، وطقطباى من ولى الدين ، وهو الوزير والأستادار ، ودولات باى قرموط ، وقانصوه من طرا باى المعروف بكرت ، وأرزمك الشريفى الناشف ، وأزبك من طرا باى المكحل ، ونوروز من أزبك أخو يشبك الدوادار ، وأبو يزيد المحمدى ، وعلى باى السيفى يشبك الذى كان

نائب غزة ، وخاير بك السيفى إينال كاشف الغربية ، وجانبلاط المحمدى أخو قانصوه البرجى . انتهى العدد من ذلك .

ثم قرر (السلطان) من الأمراء الطبلخانات خمسة وسبعين أميراً ، منهم أرباب الوظائف عشرة ، وهم عبد اللطيف الزمام والخازندار الكبير ، والمقر الناصرى محمد بن السلطان شاد الشراب خاناه ، وجانم قريب الأشرف قانصوه خمسمائة أمير دوادار ثانى ، ومغلباى الشريفى الزردكاش الكبير ، وتمراز جوشن رأس نوبه ثانى ، وجان بردى تاجر المماليك ، وطومان باى قرا حاجب ثانى ، وقلج من ولى الدين أمير آخور ثانى ، وتانى بك من يشبك محتسب القاهرة وخازندار ثانى ، وعلان والى القاهرة ويعرف بعلان من قراجا ، وقانصوه من دولات بردى أستادار الصحبة ، فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء الذين بغير وظائف ، فهم قرقماس الشريفى ، وكان الأشرف جان بلاط أنعم على خشكلدى من ولى الدين بتقدمة ألف ، وعلى قرقماس الشريفى فلم يتم لهما ذلك من بعده ، وآل أمرهما إلى إمرة طبلخاناه ، وأزدمر من يشبك ، وخشكلدى من ولى الدين ، وقانصوه من برد بك ، وجانى بك من أزدمر ، وبرسباى العلاى ، وطخ المحمدى الذى كان نائب القلعة ، وقانصوه الإبراهيمى ، وتانى بك المعروف بالأبح ، وتانى بك النجمى ، وقيت الأحول ، ويشبك من تبوك ، وبرقوق من خجا بردى ، وشادبك الناصرى ، وجانباى المحمدى ، وجان بلاط من ولى الدين أيضا ، وقرقماس من يشبك ، وتمرباى من سيباى ، وبكبلاط من أقباى ، وقانى باى من يشبك ، وجانم الإبراهيمى ، وأزبك الشريفى ، ومصرباى الشريفى وطومان باى من طوبزه ، ونوروز الشريفى ، وبلاط من حيدر ، ومامش الرجبى ، وكرتباى من حيدر ، ومغلباى من يختجا ، وجان بلاط من قانصوه ، وأصطمر من بشمان ، وقانى باى من أزدمر ، وسودون من مصطفى ، والماس من برد بك ، وقنبك من شاد بك ، وجانم من خضر ، وجان بردى من قانم ، وبرسباى الدمرداشى ، وتمر الإبراهيمى ، وجانى بك الشريفى ، وتنم من شاد بك ، وماماى من قيت ، وقانصوه من يشبك ، وقان بردى من قانصوه وأرزمك من بردبك ، وتمر باى السيفى قجماس خازندار العادل طومان باى ، وجانم من قانصوه ، ومساید من حيدر ، وبرش من عبدالكريم ، ومساید أيضاً من قانصوه ، وجانى بك قرا الشريفى ، وطرا باى الشريفى ، وقايتباى من

جانى بك المعروف بالأشـقر ، وشادى بك اليحياوى ، وقانصوه من يشبك ، وتانى بك السيفى أقبردى ودولات باى من مصطفى ، وقانى من سودون الإبراهيمى،وجانم من قجماس وطرابای من جانم ومغلباى من جانم ومصر باى الأبو بكرى،وجانى بك من حيدر ، انتهى العدد من ذلك .

ثم قرر السلطان الأمراء العشرات مائة وخمسة وثمانين أميراً ، وهم عنبر مقدم المماليك،وخشكلدى الشريفى وتبك الناصرى وأسنباى من برسباى وقراكز الشريفى وجانى باى من يشبك وبكتمر من ولى الدين وسنقر العـلاى وقلج السيفى قانصوه خمسمائة، وجانم السيفى قايتباى، وأسنباى من قروس، وطقطمش السيفى إينال،وسيباى الأبو بكرى ، وإينال من جانم، وقانصوه الإبراهيمى وسودون من حيـدر، ويوسف من مصطفى، وعلان من ولى الدين، وأقبردى الحسنى وقنبك الشريفى وبهادر من قرقماس، وأزدمر من عبد الرحيم وبيبردى من حانبلاط وبرد بك الشريفى، وبيبردى من كسباى وأركماس السيفى قانصوه وبكباى من قراجا وطهاى باى من مصطفى، وأقبردى الشريفى وإينال باى من مصطفى وخاير بك من قجماس،وجانى بك من مهدى وأقباى السيفى يشبك وطوبى الناصرى وبرسباى من برد بك وبكبلاط المحمدى، وأزدمر من تمر باى ونانق من بخشاى ونوروز من يلباى وشـاهين الجمالى يوسف ناظر الخاص وجانم السيفى قايتباى ونوروز السيفى قانى باى وقنبـك السيفى يونس ودولات باى الإبراهيمى ، وجانى باى الحسنى وسـنطباى المحمـدى وتغرى بردى الشرفى ودولات باى السيفى يشبك وجانى بك من جانبلاط وأزدمر السيفى أينال وقانم من تاتق وقنبك من قانى باى أمير جندا ، وقصروه من قانصوه ، وتغرى بردى الترجمان،وقرقماس المحمدى، وجان بردى من ولى الدين وتغرى بردى الحسنى، وأزدمر المهمندار ، وأزبك النصرانى أمير شـكار، وقانصـوه من أبى يزيد، وقنصوه الناصرى ، وأبرك السيفى لاجين ، وبلباى من على باى، وأبو يزيد من قانصوه ، ومغلباى من أياس ودولات باى المحمدى وقانصوه من جانم ونانق من أنت ، وتبك من أزرم، وقطلو باى من عبدالرحيم، وقانى باى من أزرم وقرقماس الإبراهيمى،وأزبك من قانصوه، وماماى من قبيد، وجانم من قجماس، وقانصوه العلاى، وقلج الشريفى،وعلى باى من صدقة، ونكبلاط من قانصوه

وإياس المحمدى وقانصوه من يشبك، وبرسباى من جانى بك، وقانصوه من عبدالرحيم، وطرابای السيفى أزبك، ونوروز العلاى وملاج من برد بك، وبرسباى السيفى يشبك، وجانى باى الحسنى وكريم بردى من قروس، وأزبك من مصطفى وقانصوه من جابلاط، وقرقماس الشريفى وتمر من ولى الدين ودولات باى من أزبك وأزبك الشريفى، وكان بلا من مغلباى، وبكباى السيفى أزبك، وتغرى بردى المحمدى، وتبك المحمدى، وبرد بك السيفى، وقانى باى، وبيبرس من قرقماس وأركماس الإبراهيمى، وأركماس السيفى أزبك ويوسف البدى كاشف البحيرة وهو الوزير الآن، وبيبرس من يشبك وخاير بك العلاى، وأقباى من يشبك وتبك من أياس، وجانم من يشبك، وقانصوه من جانم ومصرباى من لاجين وخاربك الشريفى وجانم المحمدى وعلى باى السيفى خشكلدى وجانى بك الناصرى كاشف منفلوط وجانبلاط الشريفى قوان بردى الشريفى وأزبك الإبراهيمى وقانم من كرتباى وتغرى برمش السيفى كسباى وأبرك الشريفى وجانم من مصطفى وأقبردى من قلج وأقطوه من قانصوه ويوسف من مصطفى وقانصوه من عبدالرحيم وتمرباى من حكم وبيسق اليوسف وأقطوه من يشبك وبرسباى من قراجا وجان بردى من مصطفى وتتم من قانى باى واقبردى المحمدى أيضاً وبرمش من بيبردى وبرد بك من أيدكى وأسنباى من برد بك وقطلو باى من تمر وقايتباى من طوبرزه، وكرتباى السيفى يشبك، وقان بردى من قجماس وأركماس السيفى قانصوه وتنم السيفى أرغون شاه، وقراكز السيفى جكم، وبكبلاط الأبريكى ونوروز من الماس وبرد بك السيفى يشبك وأينال السيفى أزبك وقانصوه من درويش وتمراز من إينال باى وخشكلدى من أركماس، وقيت من حيدر، وقانى باى الرمضانى، وجانى بك من ولى الدين، والماس من قردمش وتمر باى السيفى أزبك، وجان بلاط من جانم، ومغلباى من قيت وتمراز من أقباى وقرقماس السيفى برد بك ومامش المحمدى وعلى باش السيفى إينال، وبرد بك الإبراهيمى، وسودون من درويش، ومغلباى اليوسفى وأيدكى الشريف وشاد بك من قانصوه وسيباى من جانى بك، وجانى باى المحمدى، وقانصوه من قانى باى، وقانصوه من ولى الدين أيضا، وطرابای من قانصوه، وبيبرس من قانصوه، وخدا بردى الشريف، وشاهين معلم الدبوس، انتهى العدد من ذلك.

واجتمع فى هذه السنة من الخاصكية ثمان مائة خاصكى على ما قيل ثم تزايد عدد الخاصكية فيما بعد حتى صاروا ألف ومائتى خاصكى .

أما النواب بالبلاد الشامية، فكان ممن قرر بها من أوائل هذه السنة ، وهم قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى نائب الشام ، وسيباى المعروف بنائب سيس قرر فى نيابة حلب ، وقرر جانم فى نيابة حماة ، وقرر دولات باى قرابة العادل فى نيابة طرابلس، وكان قبل ذلك نائب الشام ، وفر ثم عاد وقرر فى نيابة طرابلس ، وقرر سودون الدوادارى فى نيابة صفد ، وقرر فى نيابة غزة قانصوه قرا ويعرف بقانصوه الجمل ، وكان العادل قرره فى نيابة حلب وما تم ذلك، وهو الان مقدم ألف بمصر ، وقرر ملاج فى نيابة القدس، وقرر أيدكى فى نيابة قطية ، ونائب الإسكندرية قانصوه خمسمائة السيفى يشبك الدوادار ، ونائب دمياط شخص من الأتراك يسمى فارس المنصورى عثمان ، فهذا كان حكم النواب بالبلاد الشامية فى أوائل هذه السنة ، ثم تغيرت الأحوال من بعد ذلك، وانتقلت النيابات إلى آخرين من الأمراء يأتى الكلام عليهم .

وأما أرباب الوظائف من المتعممين ، وهم القاضى بدر الدين محمود بن أجا الحلبى الحنفى كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، والقاضى شهاب الدين أحمد ابن الجمالى يوسف ناظر الجيوش المنصورة ، والقاضى صلاح الدين بن الجيعان مستوفى ديوان الجيش وناظر الخزائن الشريفة ، والقاضى يحيى الدين عبد القادر القصروى ناظر الجيش كان، وهو الآن ناظر الكسوة الشريفة وناظر الجوالى ، والشهابى أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ، وشمس الدين محمد بن مزاحم ناظر الإسطبل الشريف ، ومتحدثاً فى جهات الخاص يومئذ ، من حين توفى ناصر الدين الصفدى ، ثم فى عقيب ذلك تولى نظارة الخاص علاى الدين بن الإمام، وهذه ثانى ولاية، وقد راج أمره فى هذه المرة إلى الغاية ، وكان يومئذ القاضى فخر الدين بن العفيف كاتب المماليك السلطانية ، وموفق الدين بن القمص الأسلمى ناظر الذخيرة والمتحدث على أوقاف الزمامية ، وعبد الباسط ابن تقى الدين ناظر الزردخاناه ، والشرفى يونس النابلسى ناظر الديوان المفرد ، ومحمد بن يوسف ناظر الأوقاف ، وصاحب ديوان الأحباس شمس الدين بن العبسى ، وصاحب ديوان جيش الشام بدر الدين بن الإنبابى، وشريكه يوسف

ابن السيرجى . أما الوظائف التى غير هؤلاء فكان ، نقيب الجيش يومئذ الشرفى يونس بن الأقرع ، ومعلم المعلمين يومئذ البدرى حسن بن الطولونى . انتهى ذلك .

فهذا كان ترتيب دولة الغورى فى أوائل سنة ثمان وتسعمائة ، ثم انتقلت من بعد ذلك الإمريات والوظائف إلى جماعة كثيرة من الأمراء والمباشرين ، يأتى الكلام عليها فى موضعه من ولاية وعزل .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن مضى الخامس عشر من المحرم ولم يعلم للحجاج خبر ، ولا حضر المبشر ، فكثر القيل والقال بسبب ذلك . فلما كان يوم الأحد تاسع عشره حضر هجان، وأخبر أن أحوال الحاج مضطربة إلى الغاية ، وإن الجازانى ابن أمير مكة قد أظهر العصيان ، وخرج عن الطاعة ، والتف عليه يحيي بن سبع أمير الينبع ومالك بن رومى أمير خليص، وطائفة من عرب الحجاز يقال لهم بنى إبراهيم ، قد خرجوا على ركب الحاج الشامى فى رابغ، قبل أن يدخلوا إلى الينبع، فنهبوا الركب عن آخره وقتلوا الرجال ، وأسروا النساء ، وفعلوا مالا فعله تمر لنك لما دخل إلى الشام .

فلما جاءت هذه الأخبار إلى القاهرة اضطربت أحوال الناس لهذه الأخبار ثم انقطعت أخبار الحاج مدد طويلة لم يأت من عندهم خبر .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه الموافق لرابع مسرى زاد الله فى النيل المبارك عشرين أصبعا ، ثم أوفى فى يوم الأحد ثامن مسرى، وزاد عن الوفاء أحد عشر أصبعا ، فكان فتح السد فى يوم الاثنين تاسع الموافق لسابع عشرين المحرم وهو سابق على النيل الماضى بيوم واحد ، والفضل سبعة عشر أصبعا عن النيل الماضى . فلما أوفى توجه الأتابكى قيت الرجبي ، وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

وفى صفر فى مستهله نزل الحاج إلى البركة على حين غفلة ، ثم فى يوم السبت ثانيه دخل المحمل إلى القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل أصطمر من ولى الدين أمير مجلس ، وبالركب الأول الناصرى محمد بن خاص

بك ، ودخل الحاج وهو فى غاية النكد ،بسبب ماجرى على الناس فى طريق الحجاز .

وكان من ملخص واقعة الحجاج،وهوماستفاض بين الناس،أن أصطمر أمير الحجاج لما وصل إلى بطن مرو قبل أن يدخل إلى مكة، لاقاه الجازانى من هناك ، فأحضر إليه أصطمر خلعة وقال له أكنت تستقر أمير مكة احمل للسلطان خمسين ألف دينار ، فقال الجازانى نعم أنا احمل للسلطان هذا القدر ، فألبسه الخلعة حتى طمنه ، وقد أظهر العصيان من قبل ذلك،وجرى منه أمور شتى ثم إن اصطمر أرسل فى الدس مكاتبة للشريف بركات اخى الجازانى بأن يجمع العربان ويلاقيه حتى يقبض على الجازانى ، فلما أحس الجازانى بذلك تسحب تحت الليل من بطن مرو ، وكان اصطمر أرشل قليل الدربة ، فلما تسحب الجازانى لاقى الركب الشامى فى رابغ،وجرى منهم ماتقدم ذكره من قتل ونهب وأسر النساء ، فلما دخل الحاج إلى مكة وبلغه ذلك اضطربت الأحوال إلى الغاية ،ووقف الحاج بالجبل،وهم على وجل من الجازانى وعرب بنى إبراهيم ، فلما انتهى الوقوف بالجبل وخرج الحاج من مكة قال اصطمر للشريف بركات أخرج معنا ولاقى الجازانى ، فلما خرج الشريف بركات صحبه الحاج ووصل إلى مكان يسمى الدهنة، فلاقاه أخوه الجازانى فى جمع كثير من عرب بنى إبراهيم ، فأرسل الجازانى يقول لأصطمر:لاتدخل بينى وبين أخى ودعنا نقتتل فى بعضنا،وخذ أنت الحاج وامض ، فلم يسمع أصطمر منه ذلك، ثم حضر يحيى بن سبع أمير الينبع ، وصار عونة مع الجازانى ، فاتفقوا مع الشريف بركات ، ودخل أصطمر بينهم،ونادى فى الركب بأن من كان معه سلاح يحضر عونة على قتال الجازانى . فاجتمع الجم الغفير من الجمالة العكام والضوية،فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصى،وآل الأمر إلى كسرة أصطمر أمير ركب المحمل ، وقتل ممن كان معه من المماليك السلطانية نحو من مائة مملوك، غير الغلمان والطفش . وتمت الكسرة على من كان بركب المحمل فى ذلك اليوم ونهب كل مافيه حتى عروا النساء من أثوابهن، وأخذوا عصايبهن من على رؤوسهن ، وقاسين من الشدة مالا خير منه ، وتخلف غالب الحاج بالينبع،وصاروا ينزلون فى مراكب من البحر الملح ويدخلون إلى القاهرة بعد مدة طويلة وهم فى

أنحس حال . وقاسوا فى هذه السنة غاية المشقة ، وجرى عليهم كل سوء . — وقيل إن الجازانى لم يفحش فى حق من بالركب الأول، كما فعل بمن فى ركب المحمل وقد راعى الناصرى محمد ابن خاص بك دون أصطمر، وكان متأثرا من أصطمر . فلما جرى ذلك رجع الشريف بركات إلى مكة وهو مهزوم من أخيه الجازانى ، فلما رجع من بقى من الحجاج إلى الأزنم وجدوا الآبار قد ردمت بالحجارة ، فمات من الحجاج جماعة كثيرة بالعطش. فلما وصلو بالحجاج إلى العقبة لاقاهم جماعة من عربان بنى لام، فعوقوهم عن طلوع العقبة. وأفردوا عليهم ثلاثة آلاف دينار. فجبى أمير الحاج ذلك من الحجاج ودفعها للعرب حتى مكنوهم من طلوع العقبة ، ودخلوا إلى بركة الحاج وهم فى أسوأ حال ، فلما طلع الأمير أصطمر والناصرى محمد بن خاص بك إلى القلعة، ووقفوا بين يدى السلطان وبخهما بالكلام بسبب ما جرى على الحجاج من الجازانى وابن سبع ، ثم رسم بادخال اصطمر إلى قاعة البحرة ورسم أيضاً على الناصرى محمد بن خاص بك ووكل به، ثم أرسل بالقبض على قاضى القضاة الحنفى عبدالبر بن الشحنة ووكل به، وقد وشى به عند السلطان بأنه كاتب يحيى بن سبع وأيقظه بأن السلطان يقصد القبض عليه فأوسع خياله حتى عصاه على ماقيل . وكذلك قبض السلطان على أزدمر المهمندار. قيل أن يحيى بن سبع كاتبه ولم يعلم السلطان بذلك ، فصار لكل واحد منهم ذنب. واستمر الحال على ذلك .

وفى الثلاثاء خامس صفر توفى جان بلاط المحمدى أحد مقدمى الألوف ، وهو أخو قانصوه البرجى نائب الشام ، فلما مات دفن فى تربة أخيه خاير بك التى أنشأها بباب الوزير ، وكانت مدته فى التقدمة يسيرة ومات عقيب ذلك .

وفى تاسع صفر رسم السلطان بإخراج أصطمر منفياً إلى ثغر دمياط ، فنزل من القلعة بعد العشاء وتوجهوا به إلى البحر؛ وسار فى مركب إلى دمياط، وهو مقيد بقيد ثقيل .

وأما قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة، فرسم السلطان بنفيه إلى قوص ، وكان ببيت نقيب الجيش هو وأزدمر المهمندار، فشفع فيهما الأتابكى قيت الرجبى، ثم بعد أيام أخلع السلطان على القاضى عبد البر، وأعاده إلى القضاء على عادته ،

وشفع فى أزدمر المهمندار أيضاً ـ وأما الناصرى محمد بن خاص بك فإنه أقام فى التوكل مدة أيام، وقرر عليه السلطان عشرين ألف دينار ، واستمر على ذلك حتى ضمنه الأمير قرقماس أمير سلاح، وتسلمه من السلطان وشفع فيه حتى حط عنه خمس آلاف دينار. واستمر الناصرى عند قرقماس فى الترسيم نحوا من ثلاثة أشهر حتى غلق ما قرر عليه من المال وأتى إلى بيته وحصل له غاية الضرر .

المقتبس الثانى

أخبار أعمال البرتغاليين

فى المداخل الجنوبية للبحر الأحمر

وفيه حضر مبشر الحاج ، وأخبر بأن العسكر لما انتصر على يحيى بن سبع توجه إلى مكة ووقف بالجبل ، وأخبر بأن العيد كان هناك يوم الجمعة ، وإن مكة مغلة .

وأخبر أيضاً أن الفرنج كثر تعبثهم ببحر الهند، وإن حسين باش العسكر المتوجه إلى هناك يشرع فى بناء أبراج على ساحل جدة وسور ، وقد جهزوا المراكب إلى الخروج إلى عدن ، فسر السلطان لهذا الخبر ، لكن تزايد الضرر من الفرنج فيما بعد، وترادفت مراكب الفرنج ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق عشرين مركبا ، وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ، ويقطعون عليهم الطريق فى الأماكن المخيفة ، ويأخذون مامعهم من البضائع حتى عز وجود الشاشات والأزُر من مصر وغيرها من البلاد .

وسبب هذه الحادثة أن الفرنج تحيلوا حتى فتحوا السد الذى صنعه الإسكندر بن فليس الرومى ، وكان هذا نقبا فى جبل بين بحر الصين وبحر الروم ، فلازالوا الفرنج يعبثون فى ذلك النقب مدة سنين حتى انفتح، وصارت تدخل منه المراكب إلى بحر الحجاز ، وكان هذا من أكبر أسباب الفساد .

وفى أواخر هذه السنة ظهر الطاعون ببلاد الصعيد ، ولم يقع بها فى سنة عشر وتسعمائة لما ظهر بالقاهرة.

وفى هذه السنة طلع إلى السلطان شخص يسمى أبو المرافع ، وقال له أنا ألتزم لك بمائتى وخمسين ألف دينار أستخلصها لك ممن أعرفه ولا، تنتطح فى ذاك شاتان . فمال السلطان إلى كلامه، وقصد أن يخلع عليه،وشرع فى ذلك ، فاجتمع بعض الأمراء بالسلطان ورجعه عن ذلك،فرجع ولله الحمد .

المقتبس الثالث

وصف هزيمة الجيوش المملوكية فى مرج دابق

وفى يوم السبت سادس شعبان أشيعت هذه الكاينة العظيمة التى طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ، وما ذاك أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة ، ثم حضر كتاب على يد ساع مطرد من عند الأمير علان الدوادار الثانى أحد الأمراء المقدمين ، فذكر فيه أن السلطان كان يكذّب فى أمر سليم شاه بن عثمان ويصدّق إلى أن حصر مغلباى دوادار سكين،وهو فى حال النحس ، بزمط أقرع على رأسه ،وهو لابس كبر عتيق دنس ، وراكب على إكديش هزيل ، وقد نهب بركه وأخذت خيوله وقماشه ، وأخبر أن ابن عثمان أبى من الصلح ، وقال له : قل لأستاذك يلاقينى على مرج دابق ، وأخبر أنه وضعه فى الحديد ،وقصد أن يحلق لحيته وقدمه إلى المشنقة عدة مرار حتى شفع فيه بعض وزرائه ، وحمله الزبل من تحت خيله فى قفة على رأسه، وقاسى منه من البهدلة مالاخير فيه . فلما سمع السلطان ذلك تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان ، فقيل إنه أنعم على مغلباى بألف دينار وخيول وقماش وبرك فى نظير ماذهب له .

والذى استفاض بين الناس من أخبار السلطان أنه صلى الظهر ، وركب وخرج من ميدان حلب : يوم الثلاثاء فى العشرين من رجب ، وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة ، وكان تقدمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب ، فخرجوا بأطلاب حربية وطبول وزمور ونفوط حتى رجت لهم حلب ، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلى حيلان ، فبات بها .

فلما أصبح يوم الأربعاء حادى عشرين رجب ،رحل السلطان من حيلان وتوجه إلى مرج دابق ، فأقام به إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب ، وهو يوم نحس مستمر ، فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان . فصلّى السلطان صلاة الصبح، ثم ركب وتوجه إلى زغزغين وتل الفار ، وقيل هناك مشهد نبي الله داود عليه السلام. فركب السلطان وهو بتخفيفةصغيرة،وملوطة بيضاء وعلى كتفه طبر،وصار يرتب العسكر بنفسه. فكان أمير المؤمنين عن ميمنته وهو بتخفيفة وملوطة ، وعلى كتفه طبر مثل السلطان . وعلى رأسه الصنجق الخليفتى . وكان حول السلطان أربعون مصحفا فى أكياس حرير أصفر على رءوس جماعة أشراف . وفيهم مصحف بخط الإمام عثمان ابن عفان رضى الله عنه . وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم :خليفة سيدى أحمد البدوى ومعه أعلام حمر ، والسادة الأشراف القادية ومعهم أعلام خضر ، وخليفة سيدى أحمد بن الرفاعى ومعه أعلام خليفتى ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنا بأعلام سود . وكان الصبي قاسم بك بن أحمد بك ابن عثمان المقدم ذكره واقفاً بإزاء الخليفة،وعلى رأسه صنجق حرير أحمر . وكان الصنجق السلطانى واقفا خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعا ، وتحته مقدم المماليك سنبل العثمانى والسادة القضاة،والأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين. وكان ميمنة العسكر سيباى نائب الشام ، وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب .

فقيل أول من برز إلى القتال الأتابكى سودون العجمى وملك الأمراء سيباى نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالا شديدا هم وجماعة من النواب، فهزموا عسكر ابن عثمان، وكسروهم كسرة مهولة، وأخذوا منهم سبعة صناجق ، وأخذوا المكاحل التى على العجل ورماة البندق . فهمّ ابن عثمان بالهروب،أو بطلب الأمان ، وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان ، وكان النصرة لعسكر مصر أولا ، وياليت لو تم ذلك .

ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان : لاتقاتلوا شيء وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم ، فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال . فبينما هم على ذلك وإذا بالاتابكى سودون العجمى قد قتل فى المعركة ، وقتل ملك الأمراء سيباى نائب الشام ، فانهزم من فى الميمنة من العسكر . ثم إن

خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة . وأسِر الأمير قانصوه بن سلطان جركس،وقيل قتل . ويقال أن خاير بك نائب حلب كان موالساعلى السلطان فى الباطن ، وهو مع ابن عثمان على السلطان ، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد ، فكان أول من هرب هو قبل العسكر قاطبة .

وكان ذلك خذلاناً من الله تعالى لعسكر مصر حتى نفذ القضاء والقدر ، فصار السلطان واقفا تحت الصنجق فى نفر قليل من المماليك ، فشرع يستغيث للعسكر : ياأغوات هذا وقت المروة ، قاتلوا وعلىّ رضاكم ، فلم يسمع له أحد قولا ،وصاروا يتسحبون من حوله شيئا بعد شىء ، فالتفت للفقراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم : ادعوا إلى الله تعالى بالنصر. فهذا وقت دعاكم، وصار مايجد له من معين ولا ناصر ، فانطلق فى قلبه جمرة نار لاتطفى . وكان ذلك اليوم شديد الحر ، وانعقد بين العسكرين غبار حتى صار لايرى بعضهم بعضا ، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر، وغلت أيديهم عن القتال .

فلما اضطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال ، فخاف الأمير تمر الزردكاش على الصنجق،فأنزله وطواه وأخفاه ، ثم تقدم إلى السلطان وقال له : يا مولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا ،فانج بنفسك، واهرب إلى حلب . فلما تحقق السلطان ذلك نزل عليه فى الحال خلط فالج ابطل شقته وأرخى حنكه،فطلب ماء فأتوه بما فى طاسة ذهب ،فشرب منه قليلا ، وألفت فرسه على أنه يهرب ، فمشى خطوتين وانقلب من على الفرس إلى الأرض ، فأقام نحو درجة وخرجت روحه.ومات من شدة قهره ، وقيل فقعت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر . وقيل إنه لما رأى الكسرة عليه ابتلع فص ماس كان معه ، فلما نزل جوفه غاب عن الوجود.وسقط عن فرسه،ومات من وقته ، على ما قيل من هذه الإشاعة .

فلما أشيع بموته زحف عسكر ابن عثمان على من كان حول السلطان، فقتلوا الأمير يبرس أحد المقدمين قريب السلطان ، والأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى أحد المقدمين ، وقتلوا جماعة من الخاصكية ومن غلمان السلطان ممن كان حوله .

وأما السلطان فمن حين مات لم يعلم له خبر ، ولا وقف له أحد على أثر ، ولا ظهرت جثته بين القتلاء ، فكأن الارض قد انشقت وابتلعته فى الحال ، وفى ذلك عبرة لمن اعتبر . فد اسوا العثمانية المصاحف التى كانت حول السلطان بأرجل الخيول ، وفقد المصحف العثمانى وأعلام الفقراء وصناجق الأمراء ، ووقع النهب فى عسكر مصر ، وزال ملك الأشرف الغورى على لمح البصر ، فكأنه لم يكن ، فسبحان من لايزول ملكه ولا يتغيير ، بعد ماتصرف فى ملك مصر وأعمالها والبلاد الشامية والحلبية وأعمالها ، فكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما ، فإنه ولى ملك مصر فى مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ، وتوفى فى الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فكانت الناس معه فى هذه المدة فى غاية الضنك .

وقد أقامت هذه الواقعة من طلوع الشمس إلى بعد الظهر ، وانتهى الحال على أمر قدره الله تعالى ، فقتل فى تلك الساعة من عسكر ابن عثمان ومن عسكر مصر مالايحصى عدده ، فقتل من الأمراء المقدمين ثلاثة ، وهم الأتابكى سودون العجمى وبيبرس قريب السلطان وأقباى الطويل ، وأسر قانصوه بن سلطان جركس ، وقتل سيباى نائب الشام وتمراز نائب طرابلس وطراباى نائب صفد وأصلان نائب حمص ، وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء دمشق وأمراء حلب وطرابلس ، وقتل من أمراء مصر جماعة كثيرة من أمراء طلبخانات وعشرات وخاصكية وأكثر من قتل من عسكر المماليك القرانصة ، ولم يقتل من المماليك الجلبان إلا القليل ، فإنهم لم يقاتلوا فى هذه الوقعة شيئاً ، ولا ظهر لهم فروسية ، فكأنهم خشب مسندة وقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى ضبطه ، وقتل من أمراء مصر ومن دمشق وحلب فوق الأربعين أميراً . وقتل فى ذلك اليوم القاضى ناظر الجيش عبد القادر القصروى ، وجماعة كثيرة من الجند يأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، فكانت ساعة يشيب منها الوليد ، ويذوب لسطوتها الحديد ، فصار فى مرج دابق جثث مرمية ، وأبدان بلا رءوس ووجوه معفرة فى التراب قد تغيرت محاسنها . وصار فى ذلك المكان خيول مرمية موتى بسروج مغرق وسيوف مسقطة بذهب وبركستوانات فولاذ ، وخوذ وزرديات وبقج قماش فلم يلتفت إليها أحد ، وكل من العسكرين اشتغل بما هو أهم من ذلك .

المقتبس الرابع

السلطان قانصوه الغورى

فى تقدير المؤرخ محمد أحمد بن إياس

ومن هنا نرجع إلى أخبار الأشرف الغورى ، فإنه خرج من القاهرة يوم السبت خامس عشر ربيع الآخر من هذه السنة ، واستمر نافذ الكلمة وافر الحرمة إلى أن دخل حلب وأقام بها ، وأرسل إليه ابن عثمان عدة قصاد، وهو تارة يظهر الصلح وتارة يأبى ، والسلطان مسلوب الاختيار معه فى جميع مايرسل يقوله له ، ويخلع على قصاده الخلع السنية، وينعم عليهم بالعطايا الجزيلة ، إلى أن حضر مغلباى دوادار سكبن الذى كان أرسله إلى ابن عثمان ، فلما رجع من عنده، وهو فى غاية البهدلة كما تقدم ، وكان السلطان أرسل مغلباى هذا إلى ابن عثمان وهو لابس آلة الحرب باللبس الكامل ، فشق ذلك على ابن عثمان وبهدله . فلما حضر إلى عند السلطان، وأعلمه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح ، فلما تحقق السلطان أن ابن عثمان قد أوصل إليه ، فنادى للعسكر بالرحيل والخروج من حلب ، فخرج العسكر قاطبة ، وهم كالنجوم الزاهرة، من آلة السلاح والخيول الغابرة، وكل فارس مقوّم بألف راجل من عسكر ابن عثمان . فتوجهوا إلى مرج دابق، ونزلوا به ، فأقام السلطان بمرج دابق إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب من هذه السنة .

فلما بلغه أن عسكر ابن عثمان قد وصل إلى تل الفار ، ركب صبيحة يوم الأحد المذكور، وهو يوم نحس مستمر ، فبرز فيه إلى قتال ابن عثمان، فكانت الكسرة أولا على عسكر ابن عثمان ، ثم بدل الله تعالى هذا الأمر وعادت الكسرة على عسكر مصر .

فلما رأى السلطان عين الغلب من عسكره أراد أن يرجع إلى حلب ، فلما ألفت فرسه ليهرب وينجو بنفسه ، فاعتراه سارقة من الرجفة ، فأغمى عليه ، فسقط من على ظهر فرسه إلى الأرض ، فطلعت روحه فى تلك الساعة ، وهو

ملقى على الأرض ، فرجعت عليه عساكر ابن عثمان ، ففر من كان حوله من الغلمان والسلحدارية والمماليك،وتركوا جثته على الأرض ، فكان آخر العهد به، ولم يُرد له جثة ولا رأس،ولا يعرف له مكان فكأنما ابتلعته الأرض،ولم يقف له أحد من الناس على خبر .

ومن العجائب أنه لم يدفن فى مدرسته التى صرف عليها نحو مائة ألف دينار، فصار مرمياً فى البرارى، وقد تناهشته الذئاب والنمورة ، فمات وله من العمر نحو ثمانى وسبعين سنة. ومن العجائب والغرائب، أن الطواشى مختص ، الذى كان بنى أساس مدرسة الغورى أولا وأخذها منه (الغورى) غصباً فى المصادرة، سأل الغورى أن يجعل له فى المدرسة مكاناً يدفن فيه إذا مات ، فمنعه الغورى من ذلك ، فمنع الله تعالى الغورى من الدفن فى مدرسته ، وصار لا يعرف له مكان قبر، فعدّ ذلك من العبر ، انتهى .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشر سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، فكانت هذه المدة على الناس كل يوم منها كألف سنة مما تعدون .

وكانت صفته طويل القامة،غليظ الجسد،ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهورى الصوت مستدير اللحية ، ولم يظهر بلحيته الشيب إلا قليلا .

وكان ملكاً مهاباً جليلاً مبجلاً فى المواكب ،ملىء العيون فى المنظر ، ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية وحبه لجمع الأموال ،لكان خيار ملوك الجراكسة،بل وخيار ملوك مصر قاطبة .

وكان يركب يوم الاثنين والخميس بالحوش السلطانى ، ويوم السبت والثلاثاء بالميدان ، فينزل من السبع حدرات ، وقدامه طوالتان خيل، بسروج ذهب وكنابيش وميا تر زركش .

وكان يكثر فى الأسفار من ركوب الحجورة بالسروج البداوى والركب العراض .

وكان يشد فى وسطه حياصة ذهب، عوضاً عن الشد البعلبكى . وكان يلبس فى أصابعه الخواتم الياقوت الأحمر ، والفيروز والزمرد والماس وعين الهر . وكان مولعاً بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور ، وكان ترفا فى مأكله ومشربه وملبسه ، ويحب رؤية الأزهار والفواكه ، ويميل إلى أبناء العجم ، وربما كان يميل إلى مذهب النسيمية من ميله إلى معاشرة الأعاجم . وكان مولعاً بغرس الأشجار ، وحب الرياضات ، وسماع الأطيار المغردة ، ونشق الأزاهر المعطرة والبخور . وكان يستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها الماء ، وكان يستعمل الأشياء المفرحة ، وكان نهما فى الأكل ، وكان يغوى طيور المسموع ، وكان يعرف بقانصوه من بيبردى الغورى .

واستمر يرتع فى ملك مصر على ما ذكرناه من التنعم والرفاهية ، وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة، والأمراء والنواب والعسكر فى قبضة يده، لم يختلف عليه اثنان، إلى أن وقعت الوحشة بينه وبين سليم شاه بن عثمان ملك الروم، فخرج إليه، وجرى له هذه الكاينة العظمى التى لم تقع قط لملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك . وكان ذلك فى الكتاب مسطوراً .

وأما ما عد من مساوئه ، فإنها كثيرة لا تحصى ، منها أنه أحدث فى أيام دولته من المظالم ما لا حدثت فى سائر الدول من قبله . ومنها أن معاملته فى الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات، جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ولا يجوز فى ملة من الملل . ومنها ما قرره على الحسبة فى كل شهر، وهو مبلغ ألفين وسبعمائة دينار، فكانت السوقة تبيع البضائع بما تختاره من الأثمان، ولا يقدر أحد يكلمهم ، فيقولون : علينا مال السلطان ، فكانت سائر البضائع فى أيامه غالية بسبب ذلك . وقرر على دار الضرب ما لا له صورة فى كل شهر فكانوا يصنعون فى الذهب والفضة والنحاس والرصاص جهاراً ، فكان الأشرفى الذهب إذا صفوه يظهر فيه ذهب يساوى اثنا عشر نصفا . وقد سلم السلطان دار الضرب إلى شخص يسمى جمال الدين، فلعب فى أموال المسلمين، وأتلف المعاملة، وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منهم لا دينار ولا درهم . فلما شنق جمال الدين قرر فى دار الضرب المعلم يعقوب اليهودى فمشى على طريقة جمال الدين ، وقد استباح أموال المسلمين ،

فكان النصف الفضة ينكشف فى ليلته ، ويصير من جملة الفلوس الحمر . فاستمر الغش فى معاملته فى مدة دولته إلى أن مات ، وقد ورد فى الحديث الشريف من غشنا فليس منا .

ومن مساوئه أنه كان سجن الريس كمال الدين بن شمس المزين بالمقشرة ، وأقام بها أياما ، وكان من المقربين عنده .

ومن مساوئه أنه كان يضع يده على أموال التركات الأهلية ، ويأخذ مال الأيتام ظلماً ، ولو كان للميت أولاد ذكور وأناث، فيمنعهم من ميراثهم ، ويخالف أمر الشرع الشريف .

ومنها أنه كان يولى الكشاف ومشايخ العربان على البلاد ، يقرر عليهم الأموال الجزيلة، فتفرده الكشاف ومشايخ على بلاد المقطعين والأوقاف ،فيأخذ كل منهم المثل أمثال فضعف أمر الجند من يومئذ، وتلاشى حال البلاد .

وكان يولى النواب على أعمال جهات البلاد الشامية والحلبية ، ويقرر عليهم الأموال الجزيلة فى كل سنة بقدر معلوم ، فيأخذونه من الرعية بالظلم والعسف ، فكان كل أحد منهم يتمنى الرحيل من بلاده إلى غيرها من عظم الظلم الذى يصيبهم من النواب ، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذى أفرده عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة ، فما حصل على أهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير .

وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة، وآل أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات من مصر والأزر والأنطاع ، وأخرب البندر .

وكذلك بندر الإسكندرية وبندر دمياط ، فامتنعت تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم ، وعز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الفرنج .

وكان كل أحد من الأراذل يتقرب إلى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم ، فقرر على بيع الغلال قدراً معلوماً يؤخذ على كل أردب ، وهى ثلاثة أنصاف من البائع والمشترى ، وكذلك على البطيخ والرمان ، حتى خرج على

بيع الملح ، وجدد فى أيامه عدة مكوس من هذا النمط ما لا فعله هناد فى زمانه .

ولم يفته من أعيان التجار أحد حتى صادره وأخذ أمواله ، ولا سيما ما جرى على الشيرازى والحليبى التاجر وغيره من التجار ، وصادر حتى أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وأخذ منه مالا له صورة ، ودخل فى جملة ديوان حتى أورد ما قرر عليه .

وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال ، منهم القاضى بدرالدين بن مرهز كاتب السركان ، ومنهم شمس الدين بن عوض ، ومعين الدين بن شمس ، وعلم الدين كاتب الخزانة ، وجماعة كثيرة من المباشرين والعمال ، ماتوا فى سجنه بسبب المال والمصادرات .

ومن أفعاله الشنيعة ما فعله مع أولاد الناس من خروج أقاطيعهم ورزقهم من غير سبب ، وأعطى ذلك إلى مماليكه الجلبان .

ومنها قطع جوامك الأيتام من الرجال والنساء والصغار ، فحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك .

ومنها أنه أرسل فك رخام قاعة ناظر الخاص يوسف التى تسمى نصف الدنيا ، فوضع ذلك الرخام فى قاعة البيسرية التى بالقلعة .

ومنها أنه قطع الممتدات التى كانت تسامح بها الناس من الديوان المفرد من تقادم السنين ، وجدد أخذ الحمايات من المقطعين من قبل أن يزيد النيل وتزرع الأراضى ، فكانت المقطعون تقاسى من البهدلة ما لا خير فيه .

ثم تزايد شحه حتى صار يحاسب السواقين الذين فى سواقى القلعة ، والخولة الذين فى سواقى الميدان ، بجملة روث الأبقار وما يتحصل من ذلك كل يوم ، وقرر عليهم بيعها بمبلغ يردونه للذخيرة .

وكان أرباب الوظائف من المباشرين والعمال معه فى غاية الضنك لا يغفل عنهم من المصادرات ساعة واحدة، وصادر حتى المغانى النساء من الرؤساء .

وكان من حين توفى الأمير خاير بك الخازندار يباشر أمر ضبط الخزانة

بنفسه ، ما يدخل إليها وما يخرج منها ، ويعرضون عليه الأمور فى ذلك جميعه من الوصولات بما يصرف من الخزائن فى كل يوم . فكانت هذه الأموال العظيمة التى تدخل إليه يصرفها فى عمائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويزخرف به الحيطان بالذهب والسقوف ، وهذا عين الإسراف لبيت مال المسلمين .

وكان يهرب من المحاكمات ، كما يهرب الصغير من الكتاب ، وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مرض ، بل على أمور مستقبحة . وكان يتغافل عن أمور القتلاء ، ويدفع الأخصام إلى الشرع ، ويضيع حقوق الناس عليهم .

وكان يكسل عن علامة المراسيم ، فلا يعلم على المراسيم إلا قليلا ، فيوقف أشغال الناس بسبب ذلك كله . حتى كانت تشترى العلامة العتيقة بأشرفى حتى تلصق على المرسوم لأجل قضاء الحوايج . ولو شرحنا مساوئه كلها لطال الشرح فى ذلك . انتهى .

المقتبس الخامس

اسماء بعض المنقولين من القاهرة إلى إسطنبول

بأمر السلطان سليم الأول العثمانى

انتهى ما أوردناه من حوادث سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، وقد خرجت هذه السنة ومضت على خير ، وكانت سنة صعبة شديدة على الناس ، كثيرة الحوادث والفتن ، جرى فيها أمور شنيعة لم تجر فى سالف الأزمان .

وقتل فيها جماعة من الأمراء والعسكر والمماليك السلطانية فى فتنة ابن عثمان ، وقتل فيها من أهل مصر ممن ليس له ذنب ، فراح ظلما ، فقتل من الناس مالا يحصى عددهم ، ولعب السيف فى أهل مصر سبعة أيام .

وقتل فيها ثلاثة سلاطين ، وهم الأشرف الغورى ، والأشرف طومان باى ، والظاهر قانصوه ، قتل فى البرج بثغر الإسكندرية . وتغيرت فيها ثلاث دول

وخرب فيها دور كثيرة ، ونهب فيها أموال وقماش مالايحصى قدره ، وتيتم فيها أطفال ، وترمل فيها نسوان ، وجرت فيها مفاسد كثير ما لا يسمع بمثلها .

ولم تقاس أهل مصر شدة أعظم من هذه إلا فى زمن البخت نصر البابلى، فإنه أخرب مصر وأحرقها حتى أقامت أربعين سنة خرابا ، فكان النيل يطلع وينطبط وينفرش على الأرض قلا تجد من يزرع أراضى مصر عليه ، وهذ كله كان بتقدير الله تعالى فيما جرى على أهل مصر ، ونسأل الله حسن الخاتمة ورد العاقبة إلى خير .

وقد وقفت على كتاب من تأليف الشيخ جلال الدية الأسيوطى رحمة الله عليه ، ذكر فيه أن فى هذا القرن يبدو الخراب فى مصر من سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ثم يتزايد الأمر إلى سنة خمسين وتسعمائة، فيقع فيها فناء عظيم ، حتى يفنى من أهل مصر نحو النصف ، وقد ظهرت علامة ذلك فى هذه السنة .

ومن أعظم مساوىء سليم شاه ابن عثمان خروج أعيان رؤساء الديار المصرية، ونفيهم إلى إسطنبول ، ونحن نذكر منهم ماتيسر ذكره .

ذكر من توجه فى هذه السنة إلى القسطنطينية

من أعيان رؤساء الديار المصرية، وهم مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن المستمسك بالله يعقوب ، وأولاد ابن عمه سيدى خليل وهما أبو بكر وأحمد ، والمقر العلاى على بن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال .

ومن أولاد الأمراء الجناب الشرفى يونس بن الأتابكى سودون العجمى ، والجناب الناصرى محمد بن العلاى على بن خاص بك صهر الأشرف قايتباى .

ومن الأمراء بيبردى من كسباى الذى كان باش المجاورين أحد الأمراء العشرات ، وقراكزا الجكمى أحد العشرات محتسب مكة ، وقانصوه القيم باش المدينة الشريفة ، وجماعة من المماليك السلطانية الذين كانوا مجاورين بمكة ، وجانى بك دواذار الأمير طرابای .

ومن أولاد الناس الشهابى أحمد بن البدرى حسن بن الطولونى معلم

المعلمين ، ويوسف بن أبى الفرج الذى كان نقيب الجيش ، ويحيي بن نوكار الذى كان دوادار الوالى .

ومن نواب السادة الشافعية الشيخ زين العابدين بن قاضى القضاة كمال الدين الطويل، والشيخ شرف الدين بن روق ، والشيخ شمس الدين الحليبي ، والشيخ شمس الدين بن وحيش ، والشيخ كمال الدين بن مظفر ، والشيخ بدر الدين البلقينى ، والشيخ برهان الدين الأنباسى ، والشيخ شمس الدين الحجازى ، والشيخ شمس الدين ابن الآدمى الدمياطى ، والقاضى شمس الدين المقسمى العزيزى ، والسيد الشريف الحجار ، والقاضى ولى الدين البتنونى بن الشارمساحى ، والقاضى شمس الدين بن جمال الدين الأتميدى .

ومن نواب السادة الحنفية الشيخ زين الدين الشرنقاشى ، والسيد الشريف البردينى ، والشيخ بدر الدين بن الوقاد السعودى ، والشيخ بدر الدين محمد ابن الرومى .

ومن نواب السادة المالكية الشيخ شهاب الدين أحمد الفيشى ، والشيخ شهاب الدين الأبشادى .

ومن نواب السادة الحنابلة الشيخ شهاب الدين الهيتمى ، والشيخ جلال الدين الطنيدى ، والقاضى جمال الدين الحنبلى .

وأما من توجه إلى إسطنبول من السادة المباشرين السلطانيه ، وهم المقر الشهابى أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص يوسف، وابن أخيه بدر الدين بن كمال الدين ، والجناب الشمس محمد بن القاضى ، وصلاح الدين بن الجميعان ، والقاضى عبد الكريم أخو الشهابى أحمد بن الجميعان كاتب الخزائن الشريفة ، والقاضى زين الدين عبد القادر ابن الملكى مستوفى ديوان الجيوش المنصورة، والشمس محمد بن البارزى ، والقاضى ابو البقا السيرجى من ديوان جيش الشام.

ومن كتاب المماليك : شمس الدين محمد بن فخر الدين كاتب المماليك ، وسعد الدين ، وفرج ، وكريم الدين وفتح الدين من أولاد ابن نفبرة وابن أبى المنصور ، ومحمد بن عبد العظيم ، ومحيى الدين بن بهاء الدين ، وشمس الدين محمد بن إبراهيم الشرابيشى ناظر أوقاف الزمامية ، وشمس الدين

محمد من أولاد ابن البقرى ، وأولاده ، وأبو الحسن بن الرقيق ، وعبد العظيم بن أبي غالب ، ويحيى بن الطنساوى ، وشهاب الدين بن عبد العظيم ؛ وعبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخاناه ، وولده زين، وتاج الدين ، وعلى المرجوشى ، وأخو يونس الأستادار ، وابن الزكى ، ومحمد بن على كاتب الخزانة ، وأبوالسعادات ، وأفضل الدين المنوفى ، وناصرالدين الغزىالموقع ، وأمجد بن قريميط ، وعبد القادر بن قريميط ، وولى الدين ناظر المواريث وعامل المواريث ، وسعد الدين أخو علاى الدين ناظر الخاص ، وبركات المنوفى ، وسعد الدين المنوفى أيضاً ، ومحمد بن الكويز ، وأحمد بن حشو الطن ، وابن نصر الله ، وكريم الدين صهر عبدالفتاح ، ومحمد بن أبى غالب ، وصفى الدين ، وابن الهيصم ، وتاج الدين بن البقرى ، وشقيقه ، وبركات بن سلما ، وكمال الدين الناصرى ، وحامل المزرة زين ، وعبد الرحمن مباشر أمير آخور كبير ؛ وبدر الدين بن خازوقة ورفيقه ، وأبو الفضل مباشر أمير آخور كبير ، وآخرون من المباشرين مايحضرنى اسماؤهم الآن .

ومن أعيان الناس المهتار محمد النجولى مهتار السلطان الغورى ، والمهتار سليمان ، ومحمد بن يوسف الدين كان ناظرالأوقاف ؛ وعلم الدين جلبي السلطان الغورى ، وعلى مقدم الدولة .

ومن الزردكاشية يحيى بن يونس ؛ ومحمد العادلى الشهير بابن البدوية ؛ وزين العابدين بن محمود الأعور ، وجماعة من السيوفية الصياقلة والسباكين والحدادين .

ومن تجار الباسطية شهاب الدين الخطيب الأسمر ، وأحمد الديروطى وأولاد ابن نفيس .

ومن تجار الوراقين ناصر الدين الماوردى ، ومحمدالمسكى الأسود ، وعلى بن خشيم .

ومن تجار سوق مرجوش ابن الشقيرة ، وأبو الفوز بن الحمصانى ، وبدر الدين الغزولى شيخ سوق الغزل .

ومن تجار المغاربة الشيخ سالم ، وسعيد التاجورى ، وسعيد اللبدى ،

وأبو سعيدة،وآخرون لم يحضرنى أسماؤهم من التجار بأسواق القاهرة وغيرها من التجار الذين توجهوا إلى إسطنبول .

ومن الخدام مقدم المماليك سنبل العثمانى ، ونائبه جوهر الرومى ، وقيل إن جوهر توجه إلى القدس بطالا ، وآخرون من الخدام والسقاة .

ومن البرددارية كمال الدين برددار أمير كبير ، وعبد القادر ، وابن المنقار ، وشهاب الدين أحمد الجارحى قيل مات من الرجفة قبل سفره بأيام ، وابن الشيخ ، ومحمد بن رسلان ، وناصر الدين إسماعيل ، ومحمد الكاتب ، وأبو بكر ، وابن السميني ويحيى بن يحيى ، وبركات ابن المبيض ، ومحمد بن الجبان ، وبركات النائب ، وسعد الدين البحلاق ، ويحيى مقدم الخاص ، وحسن نائب البرماوى ، والسوهاجى ، ومحمد قطاره ، ومحمد بن فرو شيخ جهات المطرية ، وآخرون مايحضرنى اسماؤهم الآن .

ومن رءوس النواب فرج بن البريدى رأس نوبة حجاب الحجاب، وآخرون من رؤس النوب ، ومقدمين السقايين ، عبيد ، وأبو الخير ، وابن فريخ الفار .

وتوجه إلى إسطنبول جماعة من البنائين والنجارين والحدادين ، والمرخمين والمبلطين والخراطين، والمهندسين والحجارين والفعلة جماعه كثيرة مايحضرنى اسماؤهم الآن . وزعموا أن الخند كار ابن عثمان يقصد أن ينشىء له مدرسة فى اسطنبول ، مثل مدرسة السلطان الغورى التى فى الشرابشيين .

وتوجه إلى إسطنبول جماعة من طائفة اليهود والسامرة ، ومن طائفة النصارى بانوب الكاتب فى الخزائن الشريفة ، وأبو سعيد ، وأمين الدولة ، ويوحنا الصغير ، ويوسف بن هبول ، وشيخ المكين السكندرى وولده ، وآخرون من النصارى واليهود مايحضرنى اسماؤهم .

فيقال إن مجموع من خرج من أهل مصر وتوجه إلى أسطنبول دون آلاف إنسان ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، وفيهم نسوان أيضاً وأولادهم صغر رضع ، وشىء كبار .

ولم تقاس أهل مصر شدة من قديم الزمان أعظم من هذه الشدة ، ولاسمعت

بمثلها فى التواريخ القديمة ، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا : ففارقت الناس أوطانها وأولادها وأهاليها وتغربوا من بلدهم إلى بلد لم يطؤها قط ، وخالطوا أقواما غير جنسهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وكانت سنة مشومة على أناس ، ومباركة على أناس ، وسعدت فيها أناس ، وتعست فيها أناس . وكانت سنة مباركة على المباشرين الذين بمصر ، وصاروا هم الملوك يتصرفون فى المملكة بما يختارونه من الأمور ، ولا سيما مافعلوه فى جهات الشرقية والغربية وجهات الصعيد . ووضعوا أيديهم على رزق الناس والإقطاعات ، ثم استدرجوا إلى أخذ أموال الأوقاف ، وصار ليس على يدهم يد يفعلون مايشاؤن من هذا النمط ، فغنموا فى هذه السنة أموالا جزيلة من البلاد مما أخذوه من خراج الناس ، فكان مجىء ابن عثمان إلى مصر رحمة فى حق المباشرين وغيرها من الناس ممن أودعوا عندهم الأمراء والعسكر الأموال والقماش وقتلوا فى الوقعة . فقعدوا على تلك الودائع ، وراحت على من راح. فكان كما يقال فى المعنى : مصائب قوم عند قوم فوائد . انتهى ذلك .

المقتبس السادس

اسماء بعض العائدين

وفى هذا الشهر قدم جماعة كثيرة من اسطنبول ، ممن كان قد نفى إليها من إعيان الديار المصرية . منهم ، كمال الدين بن معين الموقع ، وابن نصر الله . مرعى الذى كان من جماعة الأتابكى سودون العجمى ، وأحمد الصيروتى .

وحضر محمد بن فرو شيخ جهات الأميرية ، وحضر محمد بن قطارة الذى كان من جماعة المحتسب ، وحضر محمد بن إبراهيم الذى كان متحدثا على الزمامية . وحضر محمد بن القاضى فخر الدين ابن العمريطى ، وحسام الدين بواب الدهيشة ، وآخرون منهم لم يحضرنى اسماؤهم الآن ، والكل فروا من أسطنبول من غير إذن من الخندكار ابن عثمان .

وحضر جماعة من السيوفية والحدادين والنجارين والبنائين والمرخمين ، وغير ذلك ممن كان توجه اسطنبول . فحضروا الكل هاربين من غير علم الخند كار .

فلما حضروا اشيع بموت ابن شقيرة التاجر الذى من سوق مرجوش ، وأشيع بموت جماعة كثيرة هناك من أعيان أهل مصر .

وقبل ذلك قدمت الأخبار بوفاة جانى بك داوادارالأمير طرابای ، وكان من وسائط السوء ، ومحمد بن يوسف الذى كان ناظرالأوقاف ، وكان من وسائط السوء أيضا . وتوفى محمد المسكى الذى كان من سوق الورّاقين . وتوفى هناك جماعة كبيرة ما يحضرنى اسماؤهم الآن .

د . محمد مصطفى زيادة